

تحديات تعريب العلوم في الجزائر

Challenges of the Arabization of Science in Algeria

جمال ميموني

قسم الفيزياء، جامعة منتوري، LPMPS، قسنطينة

لاحتفاء باليوم العربي للغة الضاد، 2 مارس 2017

مقدمة:

خاضت الجزائر بعد استرجاع سيادتها الوطنية معركة استرجاع الهوية الوطنية، وعلى وجه الخصوص استرداد اللغة العربية مكانتها الطبيعية؛ إلا أن وجود نواة لإدارة جزائرية مفرنسة مع ضرورة استمرارية العمل الإداري آنذاك، جعل التعريب في العشرة الأولى بعد الاستقلال يؤجل مما عُدّ بشكل كبير عملية التعريب لاحقاً.

سنناقش في هذا المقال إشكالية التعريب بعد الاستقلال ثم رهانات تعريب العلوم وضرورته من أجل تحصين اللغة العربية نفسها. وبعد مراجعة سريعة لحالة تعريب العلوم في العالم العربي، سنتطرق لمسيرته في الجزائر مروراً بحالة تجميده لثلاثة عقود من الزمن إلى تفهقر مستمر له حالياً في معظم الجامعات الجزائرية. وفي الأخير سنقدم الشروط الضرورية التي ينبغي توفيرها من أجل إعادة بعث عملية تعريب العلوم. على الرغم من أن الأمر يبدو مستصعباً في الظروف الراهنة، إلا أننا سنعرض ما سميناهـا "استراتيجية الحد الأدنى" التي هي دون شك أقل طموحاً من أهداف الثمانينات، إلا أنها أكثر واقعية.

1- إشكالية التعريب بعد الاستقلال

- فرنسة الإدارة الجزائرية بعد الاستقلال وعواقبها

هناك حقيقة ناصعة لا يمكن فهم الواقع اللغوي الراهن دون أن نستوعبها، ألا وهي أن فرنسة الإدارة الجزائرية تمت بعد الاستقلال وليس أثناء الحقبة الاستعمارية، إذ لم يوجد أصلاً إدارة جزائرية أثناء فترة الاستعمار سوى عدد محدود من موظفين جزائريين ذوي رتب متواضعة. ففي إطار "التعاون التقني" مع فرنسا، تم تدريب طبقة من المواطنين على الآليات الإدارية الفرنسية، فكانت بمثابة تعميم استعمال اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية في كل الوزارات الجزائرية ومنها وزارات السيادة، الأمر الذي أدى إلى تعميق المشكلة اللغوية لاحقاً. فمن الناحية الثقافية يمكن القول دون تردد أن تعميم استعمال الفرنسية في الحقبة الأولى من الاستقلال يمثل نجاحاً ثقافياً بل استراتيجياً منقطع النظير لفرنسا الذي لم تستطع هذه الأخيرة تحقيقه خلال الفترة الاستعمارية¹. صحيح أن الجزائر كانت في نفس الفترة تتعامل مع الدول

¹ يعترف اللغوي الفرنسي جيلبار غرانغ غيوم سياسة فرنسا بشأن المستقبل اللغوي الجزائري وعواقبها بعد الاستقلال :

"Un corps de fonctionnaires relativement important avait été mis en place par la France durant la guerre de libération dans l'espoir de fonder sur lui une troisième force. Cet espoir fut déçu à cette période, mais ce recrutement initial à constitué le cadre déterminant auquel sont venus s'intégrer de milliers d'autres fonctionnaires à la suite... elle est l'héritière de l'administration coloniale et ne travaille qu'en français, d'autre

العربية في إطار تعاون ثقافي وتربوي، إذ استقبلت بعثات عديدة من مصر سوريا والعراق خاصة، ولكن كانت العملية منحصرة أساسا في التعليم و ليس في الإدارة، إذ أنه كان للإدارة وحتى الجيش لغة تعامل واحدة وهي اللغة الفرنسية.

- مسيرة التعريب

بدأت عملية التعريب تدريجيا في الستينات ولكن الجزء الكبير كان في السبعينيات ضمن ما سمي بالثورة الثقافية، وذلك بعد أن تمت جزأة الإدارة، فمست على الترتيب القضاء (جوان 1966)، الإدارة (البوادر الأولى في أبريل 1968) والتعليم الأساسي (1974) ثم الثانوي ثم أخيرا التعليم العالي (في الثمانينات أساسا) ابتداء من العلوم الاجتماعية والانسانية، وكانت قادرة أن تتوج بتعريب العلوم.

تميزت عملية التعريب بصراع ايديولوجي حاد بين تيارين متخاصمين، وهما تيار استغرابي فرانكفوني² يعتبر اللغة الوطنية هي اللغة الدارجة، واللغة الفصيحة (L'arabe moderne) هي عنده بمثابة لغة اصطناعية وغريبة على الشعب الجزائري؛ أما اللغة الفرنسية فهي إرث تاريخي ينبغي الاستفادة منه خاصة بما له من القدرة على التسريع في الالتحاق بالموكب الحضاري. أما التيار الآخر الوطني³ فيضفي الشرعية على اللغة العربية فقط، معتبرا الفرنسية لغة أجنبية فرضت على الشعب الجزائري ولا بد من التخلص من هيمنتها.

تياران وطنيان في احتدام

يمكن حصر هذا الصراع بتعيين الشخصيات البارزة لكل من التيارين: فمن جانب التيار الفرانكفوني نذكر كاتب ياسين ومصطفى الأشرف، ومن الجانب الآخر نذكر عبد الله شريط⁴ و أ.طالب الإبراهيمي. وقد تمحور الاختلاف على مكانة اللغة الفرنسية، فهل كانت "غنيمة حرب" حسب العبارة الشهيرة لكاتب ياسين⁵ ينبغي الاستفادة منها، أم لغة دخيلة زحزحت مكانة اللغة العربية باغتيال بفضل سياسة

part en raison de sa formation, elle ignore la langue arabe dans sa majorité." G.Grandguillaume: "Arabisation et politiques linguistiques au Maghreb", 1983, Editions Maisonneuve et Larose, 1983

² على الرغم من أن التعبير قد يبدو ازدرائي بالنسبة للاستقطاب الراهن للساحة السياسية والفكرية، إلا أنه من الصعب إيجاد عبارة أخرى مناسبة نظرا لدعوتهم إلى تمكين اللغة الفرنسية على حساب العربية. على الرغم من ذلك فلا أحد له الحق أن ينزع منهم وطنيتهم كما يفعل من يصفهم بالطابور الخامس، وهذا غير مقبول على الإطلاق.
³ يمكن تسميته بشكل أقل انحيازاً بتيار الأصالة على الرغم من أن خصومه يلقبونه بتيار الرجعية أو أحيانا بالتيار البعثي.

⁴ نظرية حول سياسة التعليم و التعريب، عبد الله شريط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984.

⁵ أما الهاشمي شريف منسق الحزب الشيوعي PAGES، فيعتبر الفرنسية "إحدى فتوحاتنا".

« ...le Français qu'il faut considérer comme une de nos conquêtes »

- هناك مواقف أخرى من غلاة من نفس الاتجاه، فمثلا اللغوي عبدو الإيمان الذي كتب كثيرا في مجال التعريب في الصحف الوطنية من "منطلق أكاديمي" كما يزعم، يرى في عملية التعريب مؤامرة وانتقام من كفاءات الناطقين بالفرنسية لا غير:
"On veut jeter à la mer un Algérien bien placé. On veut brader notre pays.... On veut boucher notre horizon. C'est criminel." Abdou Elimane, Algérie-Actualités, 30 juillet 1992

- ويرى لغوي آخر من نفس التيار محمد الأخضر موغل في التعريب "استراتيجية استعمارية جديدة لزعة الاستقرار":

"Une politique linguistique totalitaire et exclusive... une stratégie néocoloniale de déstabilisation", Mohamed-Lakhdar Maougal, El Watan, 29 octobre 1992

-أما النائبة خليدة مسعودي فصرحت في تدخل بمجلس النواب: "إن قانون تعميم اللغة العربية ليست سوى عنصر من استراتيجية لخلق أي توجه ديمقراطي":

كما ذكرنا سالفًا، إن فرنسا الإدارة الجزائرية كانت من نصيب الجزائر المستقلة وبمال الجزائر، فبدلاً من أن تكون الفرنسية غنيمة حرب، يبدو أنها كانت بمثابة الوديعة المغممة التي جعلت الصراع اللغوي في الجزائر يتواصل إلى يومنا هذا. لا يخفى على أحد أنه على الرغم من مرور أربعين سنة من إكمال التعريب الرسمي للإدارة، إلا أنه مازالت إلى يومنا هذا تشغل بشكل شبه كلي بالفرنسية وهي مطالبة فقط من الناحية القانونية أن تتعامل مع المواطنين باللغة الرسمية⁶.

كان كاتب ياسين يمثل الجانب العاطفي للتيار الفرانكفوني، وكأديب يكتب بالفرنسية لم يستطيع تجاوز حدوده، فكما صرح به في استجاب عندما سئل حول سبب عدم رغبته في تعلم اللغة العربية أجاب بأنها حدود طوعية فرضها على نفسه:

« Ce sont des limites volontaires: Je ne veux pas connaître l'arabe classique ».

لا شك أن مصطفى الأشرف الذي هو من نفس التيار والذي تقلد منصب وزير التربية الوطنية لفترة ما، عالج القضية في كتابه "الجزائر دولة ومجتمع"⁷ من الناحية الثقافية، إلا أنه لم يخل من انحياز إيديولوجي صريح. ولكن في اعتقادي، التنظير لصالح الأطروحة الفرانكفونية جاء بشكل مكتمل في مؤلفات اللغوي الفرنسي غرانغ غيوم⁸ وخاصة في كتابه المرجعي "التعريب والسياسات اللغوية في المغرب العربي" أين يقول في العديد من الأحيان ما لا يجرؤ الآخرين بالتصريح به، فيبدأ بإضفاء شرعية للغة الفرنسية على أساس أنها "تعجن الواقع اللغوي المغربي وتوجهه نحو انفتاح لمجتمع آخر" قاصداً هنا المجتمع الغربي. ثم يؤصل الثنائية اللغوية بالشكل الذي أصبح فيما بعد الأطروحة الرئيسية للتيار الفرانكفوني، وهي أن هناك لغتين على الساحة اللغوية المغربية، اللغة العامية كلغة وطنية، ولغة الثقافة والكتابة التي إما أن تكون "العربية المعاصرة" أو الفرنسية وهما لغتين دخيلتين على الشعب الجزائري. إلا أنه لا يترك مجالاً للشك فيما يخص أي من اللغتين ينبغي اختيارها كلغة الرسمية عندما يصف عملية التعريب السارية المفعول آنذاك بأنها "مهذّدة" ومطبقة انتقامياً، بل أنها بمثابة "حصان طروادة للإسلاميين"⁹.

في نهاية المطاف، موازين القوى كانت في صالح التيار الوطني المنادٍ للتعريب فمشى التعريب على قدم وساق ولكن بمستوى إنجاز فعلي متفاوت. بعد تأخيرات مختلفة، جاء في جانفي 1991 إصدار من طرف البرلمان لقانون تعميم استعمال اللغة العربية الذي يقضي على الازدواجية اللغوية في الإدارات وكان ليتوج مسيرة التعريب منذ الاستقلال. ولكن لم يتم العمل به بذريعة أحداث تلك الفترة، ثم جمد في 1992 مع إعادة اعتباره في ديسمبر 1996 على أساس تطبيق فعلي في 5 جويلية 1998. في آخر

"La loi portant généralisation de la langue arabe n'est qu'un élément dans la stratégie visant à étouffer toute velléité démocratique." El Watan, 19 mai 1998

⁶ وحتى هذا القسط الأدنى من الالتزام لا يتم العمل به في كثير من الأحيان، إذ من مكتب البريد إلى الوكالات التجارية المختلفة حكومية كانت أو خاصة، يتم التعامل مع الزبائن بوثائق كلها بالفرنسية.

⁷ L'Algérie: nation et société, Mustapha Lacheref, Alger, SNED, 1978

⁸ G. Grandguillaume: "Arabisation et politiques linguistiques au Maghreb", 1983, Editions Maisonneuve et Larose, 1983

⁹ المرجع السابق « L'arabisation, cheval de Troie de l'Islamisme »

المطاف، جمد العمل به عام 1999 مرة أخرى بدون إعلان صريح، بل يبدو أن لا أحد يعرف حالياً حالة لهذا القانون من حيث تطبيقه ميدانياً.

2- أهمية تعريب العلوم وفوائده

لا قوامه ولا حصانة للغة العربية دون تعريب العلوم، ذلك لأن اللغة التي ينحصر استعمالها للشعر والأخبار الوطنية والحملات الانتخابية وقضايا اجتماعية أخرى، معرضة للزوال¹⁰. وهذا ما فهمته جيداً دول العالم المتحضر مثل اليابان، الصين، كوريا وتركيا، بل حتى الدول الصغيرة في أوروبا مثل المجر، سلوفاكيا، رومانيا وبلغاريا، إذ يدرسون العلوم بلغتهم على مستوى الجامعي في الطورين¹¹.

- سياسة إسرائيل في المجال اللغوي:

إسرائيل، ذلك الكيان الذي يقهر الشعب الفلسطيني والذي حطم رقماً قياسياً في انتهاكات حقوق الإنسان، تحتل مكانة مرموقة في ميدان العلوم، إذ أن إنتاجها العلمي يفوق الإنتاج العلمي لكل الدول العربية مجتمعة! معجزة أخرى، هي أنها أحيت لغتها العبرية التي كانت منذ آلاف السنين ميتة والتي على خلاف العربية لم تستعمل حتى خلال عصرها الذهبي عندما كان علماءها يستعملون اللغة العربية مثلما كان الأمر في الأندلس، وذهبت أبعد من هذا، فبالإضافة إلى تدريس العلوم بالعبرية على كل المستويات وحتى في الجامعة، فقد فرضت مناقشة رسائل الدكتوراه في العلوم باللغة العبرية فقط دون استثناء¹². في حين أنه ما زلنا نسمع عندنا أهات البعض عندما نتكلم عن تعريب العلوم، فيتحججون باستحالة الأمر¹³.

بالفعل، إن سياسة إسرائيل اللغوية تتميز بالثقة بالنفس والرغبة في إنشاء Homo Hebraicus على خلاف طموحات الكثير من الدول العربية التي ترغب على ما يبدو في القضاء على Homo Arabicus المغلوب حضارياً، ليذوب في الحضارة الغربية أو العالمية.

- أهمية التعريب قومياً واستراتيجياً

من الناحية الحضارية، اللغة هي الركيزة الأساسية في بناء الهوية الوطنية. ألم يقل ألبرت كامو بشأن اللغة الفرنسية أنها وطنه؟ "Ma patrie, c'est la langue française". عموماً، هناك حقيقة ناصعة ينبغي الاعتراف بها: لا يمكن أن توصف جامعة بأنها وطنية إذا كانت تدرس بغير اللغة الوطنية، فهي مطابقة بسيطة تبنتها كل الدول المتحضرة. أما من الناحية الاستراتيجية، فاستعمال لغة وطنية واحدة كلغة

¹⁰ الأشهار أصبح بالفرنسية أو العامية، وواجهت المحلات معظمها بالفرنسية، والإدارة ما عدا الحالة المدنية والعدالة، تتعامل مع المواطن بالنسبة للوثائق المختلفة بالفرنسية. كل هذا في ظل قوانين صارمة تفر بإجبارية تعريب الوسط العام وواجهت المحلات وكذا إجبارية التعامل مع المواطن باللغة العربية.

¹¹ Quelles langues pour la science? B.Cassen, La Découverte, 1990

¹² «Mes collègues universitaires étrangers sont surpris lorsque je leur raconte que j'enseigne la mécanique des fluides en hébreu. Mes collègues du Technion (Institut de technologie à Haïfa) enseignent en hébreu les mathématiques supérieures, l'aéronautique, les sciences nucléaires, etc. La renaissance de l'hébreu, considéré souvent comme une langue morte ou fossile, analogue au latin de l'Eglise, tient du miracle. Nous sommes témoins de la renaissance d'autres langues nationales telles que l'arabe, le hindi ou l'irlandais, mais ces langues étaient restées des langues vivantes, tandis que l'hébreu avait cessé d'être parlé depuis plus de 2000 ans...» Meta, XLIII, 1, 1998, S.Irmay.

¹³ لا يقصد أن تعريب العلوم يستلزم تعريب البحث العلمي إذ البحث العلمي يتم عالمياً بالإنكليزية أساساً، فالعملية أعقد وغير مطروحة حالياً.

أكاديمية تعمل على التماسك الوطني، كما أنها ستساهم في الاندماج المغربي بالنسبة لدول المغرب العربي.

- منافع تعريب العلوم تخفيف نسبة الرسوب الجامعي

لا شك أن استعمال كلغة تدريس جامعي لغة لا يتحكم فيها الطالب الذي أنهى دراسته الثانوية باللغة العربية بصفة كلية هو السبب المباشر في النسبة العالية للرسوب بالجذع المشترك علوم في بلادنا. اعترف بكل صراحة وواقعية وزير التعليم العالي آنذاك المرحوم جيلالي اليابس بهذا الواقع المؤلم¹⁴:

"نستقبل كل سنة العشرات الآلاف من حاملي شهادة البكالوريا حيث لغتهم الرئيسية للتعليم هي اللغة العربية. معظم هؤلاء الطلاب غير قادرين عمليا من اتباع دروس ذات مستوى عالي في اللغة الفرنسية ... هذه حقيقة ناصعة في منتهى البسيطة."

غير أن لا أحد في يومنا هذا يبالي بهذه الكارثة البيداغوجية. قمنا في بداية تطبيق نظام LMD بدراسة إحصائية على مستوى السنة الأولى الجذع المشترك علوم والتكنولوجيا وعلوم المادة بجامعة منتوري أين تُدرّس المواد العلمية بالعربية مقارنة مع ما نشر من إحصائيات الرسوب بجامعة باب الزوار بالعاصمة أين يتم التدريس باللغة الفرنسية، فكانت النتيجة كالآتي: باب الزوار 65% من الرسوب في السنة الأولى، أما جامعة منتوري فكانت النسبة 45%.

تنوير وعقلنة المجتمع

هناك حجة أخرى لصالح تعريب العلوم: إذا كانت اطروحة التيار الفرانكفوني بشأن الحفاظ على الفرنسية يعتمد على دورها في إيقاظ المجتمع وترقيته حضاريا، لكان من الأجدر بهم أن يدافعوا عن تعريب العلوم الذي بواسطته يمكن تلقين المجتمع قسطا من "العقلانية الضائعة" ومكافحة الخرافات المنتشرة فيه. فتدريس العلوم بالفرنسية يسد الباب أمام عملية تبسيط العلوم للجمهور العام وتنويره الذي لا يمكن أن تتم إلا بلغة يُتَحكم فيها. ونرى هذا جليا عندما يسعى أحيانا رجل علم أحادي اللغة (ولو بارعا) مخاطبة الجمهور بل حتى تلاميذ باللغة التي يعرفها وهي الفرنسية، ينفر وينزعج معظم المستمعين وفي آخر المطاف لا يستطيع توصيل رسالته¹⁵.

3- مسيرة تعريب العلوم - حالة تعريب العلوم في الدول العربية:

إذا تم تعريب العلوم على المستوى الثانوي في معظم البلدان العربية، فإن تعريب العلوم في الطور الجامعي قد تم بصفة متفاوتة، فباستثناء سوريا والعراق التي عرّبت كل الفروع العلمية منذ أمد بعيد، لم تقم معظم البلدان الأخرى بتعريبها. فمثلا تدرس دول الخليج، لبنان والأردن بلغة أجنبية (عموما

¹⁴ "Nous recevons chaque année des dizaines de milliers de bacheliers dont la langue d'enseignement principal est l'arabe. La plupart de ces étudiants sont pratiquement incapables de suivre un cours de haut niveau en langue française... C'est une équation qui est tout à fait simple". Djilali Liabès, Algérie Actualités, 19-25 Septembre 1991

¹⁵ Quelle Langue pour la Diffusion de la Culture Scientifique en Algérie ? J.Mimouni, Le Quotidien d'Oran, 4&5 décembre 2001;

الانجليزية)، أما مصر والسودان تدرس في كثير من الأحيان بمزيج من العربية والانجليزية والعامية¹⁶، أما في المغرب العربي - ما عدا الجزائر التي بدأت في تعريب العلوم في الطور الجامعي- ما زال المغرب وتونس يدرسون العلوم بالفرنسية.

- أما تعريب العلوم في الجزائر

بعد استكمال تعريب الطور الثانوي، شرعت الجزائر في مواصلة التعريب على المستوى الجامعي دون توقف قصد تعريب كل فروع العلوم، باستثناء فرع الطب الذي كان سيعالج لاحقا حسب المسؤولين نظرا لخصوصيته. كانت العملية تتم بإدراج سنة جديدة كل عام مثلما حدث بالنسبة لتعريب التعليم الثانوي. لم يكن هناك معارضة ملموسة في أوساط الأساتذة¹⁷، إذ كانت العملية تعتبر طبيعية ضمن بناء جامعة وطنية بل من عزم الأمور. من جهة أخرى، كانت العملية محل ترحيب من قبل الطلبة الذين زاولوا كل دراساتهم السابقة بالعربية وكانوا قلقين من الكارثة أو "المذبحة" كما يسمونها التي كان تنتظرهم عند الانتقال إلى الطور الجامعي¹⁸. فشرعية التعريب لم تكن محلا للنقاش، لكن مشكلة التعريب كانت مشكلة تقنية، وأقصى ما كان يطلبه الأساتذة آنذاك هو تنقيص الحجم الساعي للدروس (من أجل الاستفادة من تربصات في دول عربية للتدرب على التدريس باللغة العربية)، وتوفير الكتب المنهجية باللغة العربية في المكتبات. لندرك أن قضية تعريب العلوم في الجامعات كانت قاب قوسين من الإنهاء نذكر هنا تقييم وزير التعليم العالي الجليلي اليابس في سبتمبر 1991:

"أومن أنه ينبغي التكلم بلغة الحقيقة، إن تعريب السنة الأولى علوم وتكنولوجيا قد تمت منذ ثلاث سنوات وقد زرت الجامعات أين الجذع المشترك معرب تماما. وتفكر جامعة العلوم والتكنولوجيا بوهران USTO تعريب السنة الثالثة في كل التخصصات، أما جامعات الغرب فتدرس باللغة العربية منذ ثلاث إلى أربع سنوات، يبقى وجوب تكثيف الجهود اتجاه الجامعات التي لم تعرب كليا السنة الأولى...".

كانت عملية التعريب موجهة بالتنسيق مع وزارة التعليم العالي حسب توجيهات اللجنة الوطنية للتعريب المنبثقة من قرارات حزب جبهة التحرير الوطني. أما على المستوى المحلي، فقد أنشئت مكاتب التعريب في كل الجامعات التي كانت تتابع وتنسق مع الإدارة المركزية للجامعة وأقسام الكليات المختلفة. الجدير بالذكر أنه في سياق عملية التعريب، ظهرت حركة حثيثة للترجمة وتم إنتاج وثائق بيداغوجية على مستوى ديوان المطبوعات الجامعية (OPU) كان يقوم بها الأساتذة المتمكنون مع تشجيع مادي

¹⁶ فيصعب على طالب من أصل مغاربي خاصة أن يفقه درسا في مادة علمية تلقن بالجامعات المصرية إلا بعد فترة معتبرة من التكيف والانغماس اللغوي عكس ما يحدث بالجامعات السورية أو العراقية.

¹⁷ ما عدا معارضة صامتة خاصة من الذين زاولوا دراستهم ومنها الطور الابتدائي بالفرنسية. من جهة أخرى، فإن تنفيذ خطة التعريب كان محل ملاحظة من طرف بعض الجامعات وعلى وجه الخصوص جامعة باب الزوار، كما كان يوجد أيضا معارضة دفيئة غير معلنة من طرف بعض الأوساط السياسية.

¹⁸ فعلا، فإن نسبة الرسوب بالجامعات الجزائرية بسبب الانقطاع بين المرحلة الثانوية والجامعية مرتفعة وبأثمان باهظة، وكم من تلاميذ كانوا متفوقين في دراساتهم الثانوية، رسبوا في السنة الأولى من الجامعة.

¹⁹ « Je crois qu'il faut parler le langage de la vérité. L'arabisation de la 1^{er} année de S&T est prise en charge depuis trois ans. J'ai visité des Universités où le Tronc Commun est entièrement arabisé. L'USTO songe à arabiser la 3^{ème} année et les spécialités. Les Universités de l'Est enseignent en langue arabe depuis 3 à 4 ans. L'effort doit donc porter sur les Universités qui n'ont pas intégralement arabisées la première année.... ».
Djilali Liabès, Algérie Actualités, 19-25 Septembre 1991

لموس للمؤلفين، فغرقت السوق بمطبوعات مرافقة للدروس (Polycopiés) إلا أنها كانت متفاوتة في المستوى. بالموازاة مع ذلك، تم استيراد العديد من أمهات الكتب المترجمة إلى اللغة العربية²⁰.

تراجع التعريب والانفصام اللغوي للجامعات:

في أعقاب أحداث التسعينيات، تم تجميد فعلي لمسيرة التعريب، كما تم غلق مكاتب التعريب وترك اختيار لغة التدريس للمجالس العلمية للجامعات أو للأساتذة أنفسهم، فتم إلغاء الكثير من الأقسام المعربة (بدعوة توحيد مناهج التدريس) بجامعات الوسط، مما أحدث انفصاما لغويا ما زال ظاهرا في وقتنا هذا، فهناك جامعات تدرس بالفرنسية وأخرى بالعربية في الطور الأول، وعلى وجه الخصوص جامعات الوسط والغرب التي تدرس بالفرنسية وبالمقابل جامعات الشرق والجنوب التي تدرس بالعربية على الأقل في المرحلة الأولى للتدرج. والجدير بالذكر أن إدخال نظام LMD قضى على كثير من الأقسام المعربة.

4- تحديات أمام إعادة بعث تعريب العلوم

إن استرجاع ديناميكا تعريب العلوم والدفاع عنه أصبح مرهونا في اعتقادي بتوعية المجتمع للأهمية الحضارية لهذا المشروع فضلا عن منافعها الأخرى. فنرى فعلا نقص هذا الوعي رغم أهميته من الأسرة الجامعية، الطلبة، المجتمع، أو قد يكون ناتجا عن عدم وجود قنوات مناسبة للتعبير عن رأيهم والمطالبة بتحقيقه. هناك قضية أخرى هو أنه - كما ذكرنا سالفا- من أجل تحسين اللغة العربية على المستوى الثانوي لا بد من اكتمال التعريب على المستوى الجامعي وإلا فحتى التعريب على مستوى الثانوي سيكون في خطر²¹، ومثال لذلك ما يحدث حاليا في المغرب الشقيق، حيث وضعت وزارة التربية خطة مفادها التراجع عن تدريس العلوم بالعربية في الطور الثانوي. أما عندنا، فتوصيات تقرير لجنة بن زاغوا التي حكمت²² بإخفاق اللغة العربية في مواكبة علوم العصر وطرح قضية تدريس العلوم بالفرنسية في الطور الثانوي غير بعيدة عما يحدث عندهم. ولا شك أنه إذا طبقت هذه التوصيات لكانت بمثابة سحب البساط من عملية تعريب العلوم في الطور الجامعي بل القضاء النهائي عليه²³.

لا يخفى على أحد أن المكاسب التي نالها التعريب خلال الثمانينات وجزء من التسعينات أصبحت في خطر بل هي محل ردة، إذ كل المؤشرات توحى بتراجع التعريب في كل مجالات الحياة المهنية بل

²⁰ نذكر على وجه الخصوص مجموعة الكتب العلمية المترجمة من دار النشر الشهير McGraw-Hill Egypt التي بفضلها وضعت في أيدي الطلبة أحسن الكتب الموجودة في الجامعات الأمريكية والتي لم تكن متوفرة بالفرنسية. ففي الفيزياء مثلا نذكر السلسلات الشهيرة المترجمة بدقة وتصنيف عال الجودة: Feynman's series, Alonzo & Finn, Berkeley series...
²¹ يمكن فهم عملية تحسين العربية في الطور الثانوي بالقياس التالي: كما يعرف البنائين، من أجل الحفاظ على سلامة الطابق الأرضي لبنانية ما، إذا لم يتم تزفيت جيد لسقف هذا الطابق، ينبغي تشييد طابق علوي يصونه من تسريبات ماء المطر.

²² "La Langue Nationale et les Langues Etrangères dans notre Système Educatif: Discussion du Rapport Général de la Commission Benzaghou" J.Mimouni, N.Guessoum, Le Quotidien d'Oran, 17,18 et 22 octobre 2001; "Sur les langues à l'école, le rapport Benzaghou et certaines délectations intellectomanes" J.Mimouni, Le Quotidien d'Oran, 13 février 2002;

- مذكرات شاهد، رابح خدوسي، دار الحضارة، 2001.

²³ مما سيتطلب حتما تكثيف تدريس اللغة الفرنسية على المستوى الثانوي لتمكين الطالب، مما يستلزم جعل المدرسة الجزائرية أحادية اللغة الأجنبية... المزيد من التبعية لفرنسا في الميدان الثقافي. ولا يخفى على أحد أن معظم المقررات العلمية في الثانوية هي مجرد تكيف مع برامج فرنسية. فإذا تم فرنسة العلوم، فسينحصر العمل حينها على أخذ حرفي للمقررات والمؤلفات.

اليومية. أما بشأن تعريب العلوم، فبعد تجميد خطة تعريب العلوم بطريقة غير معلنة في بداية التسعينات تحت الظروف الخاصة لتلك الفترة، ظلت تتفهم سنة بعد أخرى تحت غطاء نظام LMD والعولمة، ومقروئية المسار الدراسي للطالب. فنسمع كل سنة عن فرنسة فروع جديدة في بعض جامعات الشرق التي كانت معربة، والأدهى والأمر هو أن كل الفروع التي تتفرنس لا يمكن -لأسباب لاداعي للخوض فيها هنا- أن ترجع إلى العربية يوم ما، فهي عملية في اتجاه واحد.

- توقف وتراجع عملية تعريب العلوم :

تبقى قضية تعريب العلوم في الجامعات إلى يومنا هذا محل عدم اهتمام في الأوساط الرسمية، فهي قضية ضائعة في أمل ان تسترجع يوما ديناميكيته.

5- استراتجية الحد الأدنى

نظرا للحالة الراهنة لمكانة اللغة العربية في العلوم والفوضى اللغوية التي تعاني منها الجامعات الجزائرية، ينبغي في تصوري انتهاء استراتجية الحد الأدنى بناء على الاستنتاج التالي:

نظرا لعدم إمكانية زعزعة مكانة اللغة الفرنسية في معظم الجامعات الجزائرية حاليا لأسباب واقعية، ينبغي السعي على تعايش سلمي (Modus vivendi) معها بالتركيز على القضايا البيداغوجية التي لا نزاع فيها، وعلى وجه الخصوص ضرورة محو الانقطاع الموجود بين التعليم الثانوي والجامعي، ذلك الانقسام اللاعقلاني بل الكارثي الذي لا يوجد مثله في أي منظومة تربوية في العالم والذي يذهب ضحيته خير طلبتنا²⁴.

تتمثل خطة العمل هذه استراتجية في النقاط التالية:

1- العمل على تدريس المواد العلمية الأساسية في نظام LMD بالعربية بالنسبة للسنة الأولى وجزئيا على الأقل للسنة الثانية، وترك السنة الثالثة ليسانس بالفرنسية في الوقت الراهن في الجامعات التي تدرس بالفرنسية. توفير ترجمة إجبارية بالعربية في كل مسابقات الماستر والدكتوراه الوطنية وذلك لعدم تضرر الطلبة الذين درسوا بالعربية كما هو الأمر حاليا.

2- تشجيع بل فرض اللغة الأنكليزية على مستوى الماستر متى أمكن ذلك²⁵.

3- صياغة قوانين تنص على أولوية اختيار لغة الضاد في حالات تعدد الطرحات وعدم ترك الأمر للمجالس العلمية أو الأساتذة أنفسهم.

4- على المستوى المؤسسي، إنشاء دائرة تابعة لوزارة التعليم العالي تتكفل بتحقيق التجانس اللغوي على مستوى الجامعات الجزائرية بغية التخلص أو على الأقل تقليص الفوضى اللغوية الموجودة حاليا والتي هي غير مقبولة في أي دولة تحترم نفسها، وذلك وفق النقاط السابق ذكرها.

²⁴ الطريقة البديلة هو اللجوء إلى فرنسة المواد العلمية في الطور الثانوي كما أوصى بها تقرير بن زاغو لإصلاح المنظومة التربوية...

²⁵ في رأيي المتواضع لا يمكن تعريب العلوم على مستوى البحثي حاليا بل حتى لأمد بعيد، ولذا لا أرى من أهداف معقولة حاليا تعريب دراسات على مستوى الماستر أو الدكتوراه.

5- العمل على تفضيل اللغة الوطنية كلما تعلق الأمر بالمنشورات العلمية و مخاطبة الجمهور العام في قضايا علمية، وإلا فتوفير الترجمة إلى العربية يكون إجباري من حيث المبدأ²⁶.

6- القيام بحملات توعية حول رهانات التعريب بيداغوجيا واجتماعيا وحضاريا وبالموازاة مع ذلك تطوير أدوات بيداغوجية وتحفيزية مناسبة.

7- إطلاق مبادرة مغربية مشتركة بشأن تعريب العلوم وتوحيد المناهج العلمية وكذا المعاجم العلمية بهدف عقلنة الإنتاج البيداغوجي والعمل على اندماج دول المغرب العربي تعليميا. هذه الخطوة ستوطد وتعمق لا محالة عملية تعريب العلوم بوضعها في إطار أوسع.

6- خاتمة

إن تعريب الإدارة وكل من الحياة المهنية والعامة، وكذا التعليم على كل المستويات هو مطلب حضاري، ثقافي بل حيوي، إنه امتداد لمسار استكمال الهوية الوطنية. أما تعريب العلوم فهي ضرورة حيوية لتحسين اللغة العربية وتفتحها على مجالات الحياة المعاصرة وجعلها قادرة على مواجهة تحديات العصر، إذ دون ذلك تفقد اللغة مصداقيتها بل تتحفظ. فمن الضروري جدا مواصلة مشوار تعريب العلوم الذي كاد أن يكتمل في بداية التسعينات والذي يقع حاليا مجمدا بل في تقهقر.

وقد وضعنا مجموعة من الخطوات ضمن ما سميناه "استراتيجية الحد الأدنى" انطلاقا من اعتبارات بيداغوجية محضة آخذين بعين الاعتبار الخارطة اللغوية الحالية في الجامعات الجزائرية، ذلك لكي تتم عملية تعريب العلوم بشكل حازم وبعيدا عن كل صراع أيديولوجي.

²⁶ أما فيما يخص المناطق الناطقة باللغة الأمازيغية، أو لغة محلية عموما، يمكن تشجيع استعمال الأمازيغية لنشر الثقافة العلمية وذلك بغية تنوير الجمهور في قضايا العصر خاصة في العلوم والتكنولوجيا التي لا يمكن تحقيقه إلا بلغة يفهمها الناس، وللهند تجربة رائعة في هذا الشأن. لا شك أن القضية بحاجة إلى تفصيل، والذي لا يمكن القيام به في إطار هذا البحث.